سعيد حجي يتحدث
عن عهد الصبا وسن الطفولة

مراتع الصبا

نشرت جريدة « الوداد » الخطية في عددها الممتاز الحامل لتاريخ 8 يناير 1929 كلمة لسعيد حجي يتحدث فيها عن مراتع صباه هذا نصها على ما فيه من سذاجة في التعبير وبساطة في أسلوب الكتابة، وأعيد نشرها في « سعيد حجي » لأبي بكر القادري، ج 1 ص 8 - 10 :

« ولدت في 11 ربيع الأول سنة 1330 ، الخميس 29 فبراير سنة 1912 ، ولما وصل سني الخامسة، دخل بي أبي إلى مكتب مجاور لدارنا مع إخوتي، فبقيت إلى أن اقتضى نظر أبي بعد سنتين تقريبا أن يخصص لنا فقيها في الدار ففعل، وغفلت أن أقول: إني في هذه المدة، لم أحصل على طائل من القراءة أو الحفظ، وما ذاك سوى ناتج عن قبح التعليم في تلك المكاتب. فلما صرنا في الدار، رجعنا كالمسجونين، أو إن شئت قل أكثر، وربما كان أبي يقصد بذلك إصلاحنا مع غفلته وجهله أن هذا ضرر عظيم على الشبان، ولكن لا لوم عليه. فصرت أقضي أيامي في الأمور التافهة التي لا تجدي نفعا، وهكذا بقيت مدة تزيد عن سنتين، حصلت خلالها على تعلم الهجاء قليلا جدا، ثم لما حصلت مع الأستاذ وأخي الأكبر مناقشة جعل الأستاذ مكتبا خاصا به، وصرنا نذهب إليه مع جميع التلاميذ، وبقيت - مدة - على هذه الحال، وصرت أعرف شيئا قليلا في القراءة، وحفظت سورة أو نصفها، لأن من طبيعتي عدم الحفظ، إلا بعد فهم المعنى.

وفي نصف ذي الحجة سنة 1339 وقعت في سلا نهضة في فتح المدارس، وكان أبي يريد

أن يدخلنا فيها، لكن تأخر في عمله إلى أن مر شهران من ذلك التاريخ، فأدخلنا إليها نصف يوم أو، بعبارة أخرى، نقرأ العلم في هاته المدرسة، والقرآن في مكتب أستاذنا المتقدم، ثم تعين أستاذنا المذكور مدرسا هناك، فذهبنا معه من جملة التلاميذ، وصرنا نقرأ النحو والفقه والقرآن، وهنا أردت أن أطلق لقلمي العنان ليوضح المجال، فيتكلم عن المدرسة التي كنت قضيت فيها شطرا كبيرا من عمري، وحصلت في خلاله على شىء زهيد للغاية، لا يعد شيئا مذكورا أمام الأيام التي قضيتها فيها.

دخلت المدرسة كما تقدم نصف يوم، فوجدت في قسمي أستاذا يدعى السيد زين العابدين بن عبود، فإذا هو يحسن النحو والفقه لا غير على الطريقة القديمة، وإن كان دخلها بعض التقدم؛ فقرأنا عليه دروسا بالحفظ في النحو، ولا شك أنها مختصرة للغاية، مناسبة لقسمنا الابتدائي، وأوشكنا على ختامها ولله الحمد، حتى كنت أعرف وأفهم دروسي بأجمعها، وصرت في قسمي من الطبقة الأولى، ثم تحولت المدرسة من محلها القديم، وصارت في دار حبسها عليها حضرة الأجل الكريم أحمد الصابونجي، وهناك قسمت الأقسام على أحسن حال في نظر المغاربة، وصار فيها ثلاثة أقسام، كنت من القسم الأول، نقرأ صباحا القرآن عند أستاذي القديم في المكتب، وعلى الساعة الحادية عشرة يدخل أستاذي النحوي والفقهي المتقدم، فيعلمنا حفظ الأمهات من الألفية والأجرومية والمرشد المعين وغيرها. وعلى الساعة الثانية بعد الزوال، نأتي إلى المدرسة فنقرأ درسا من النحو ودرسا من الفقه، وأخيرا صارت همتنا كلها متجهة إلى النحو، وصار كل حديثنا فيه، والكل يقول: كيف تعرب هذه الجملة ؟ وهذا المثال؟

وبعد مرور سنة، أرادت هيأة المدرسة أن تجعل امتحانا عاما، فوزعت دعوات إلى جميع الأعيان وآباء التلاميذ وغيرهم من رجال المخزن، وحضروا جميعا، وكنت الأول من الذين سيمتحنون في القسم الأول، فوقفت مرتعشا لما أرى من الجماهير العديدة حولي، فسألني الأستاذ في أمور أجبته بما يقتضي المقام، وعلى أحسن حال، ثم جلست، فقام من على

يميني، وهو شاب يقال له: المكي عواد، إلى أن اتهى قسمنا من الامتحان؛ وأخيرا قام بعض الخطباء من تلامذة قسمنا، فكان أولهم وأرقاهم ذلك الشاب الذي كان عن يميني المكي عواد، إذ وقف بجسارة ومقدرة حيرت جميع الحضور، ثم تبعه أبو بكر حصار، وغاية ما يقولون في خطبهم هذه، ترحيب بالحاضرين، والدعاء لله أن يكون لنا مستقبل زاهر، ولكن قد وقع ذلك من الحاضرين موقع إعجاب وإكبار، وتأثروا جدا، لأن جل أولادهم كانوا في المدارس الفرنسية الحكومية، ولا يقرأون سوى الفرنسية، وشيئا قليلا جدا من العربية التي هى لغتنا القومية والوطنية، بل صار بعضهم يبكي. وهكذا اتهى الامتحان بالنجاح والفوز، فذاعت شهرتنا في أنحاء المغرب، ونشر ذلك في « السعادة » فكان له أشد تأثير على الأولاد الذين في المدارس الفرنسية؛ ثم قرأنا دروسا عالية جدا، ومختصرة بعبارة أوضح من « التلخيص » في النحو، وصار الأستاذ يجتهد فوق طاقته في إنجاحنا، وهكذا بقينا في هذه المدرسة هذه السنة كلها، ونحن على نظام واحد، إلى أن أرادت هيأة المدرسة أن تعفى مدرسنا من ذلك المنصب، لما رأت فيه من التراخي وغيره، فلما استعفى جنابه، صرنا في كدر عظيم ».

من ذكريات الصبا

تم نشر هذا الحديث والحديث الموالي له الحامل لعنوان « ذكريات » في كتاب « سعيد حجي » لمؤلفه الأستاذ أبي بكر القادري، ج 2 ص 239 و 245

- 1 -

« يتذكر الإنسان حوادث جرت له في حياته كما أنه يغفل عن حوادث من دون أن يدري أسباب تذكره لتلك الحوادث أو نسيانه لها؛ والعلم الحديث أيضا حاول أن يدرك مقياسا لذاكرة الإنسان وغيره فلم يوفق إلى أسباب مرتبطة بنتائجها، إنما برهن على

نظريات لا يسقط من قيمتها إلا أنها نظريات ليست بمقررات، ولا ريب أن اليوم الذي سيعرف العلم فيه حقيقة وعي الإنسان أو شخصيته بالأحرى إن كان بعيدا فهو قريب بالنسبة لحياة الإنسان وأطواره وبالنسبة للتاريخ البشري على وجه الإطلاق؛ ولست أدري هل سيأتي ذلك اليوم على عهد جيلنا الحاضر أم بعد أجيال؛ فالإنسان منذ أن خرج من وحشيته الأولى وتطلع إلى نفسه يتمنى من صميم فؤاده أن يكشف له عن هذا الحجاب المستور، وأن يدرك شخصيته من طريق لا غبار عليها، وكلما ازداد البشر تقادما في الحياة ازداد شغفه بهذه المسألة.

ونحن إن لم نصل لذلك اليوم لنكتف الآن - خوفا من الانتظار غير المفيد بدرس هذه النظريات العلمية ولنطبقها على شخصيتنا وعل الأخص في مسألة الذاكرة والنسيان، فلقد نجدها مطابقة تمام الانطباق، وقد لا نجدها، إنما المهم أن ندرك كل رأى علمي له مسيس بشخصيتنا.

تقول هذه النظريات إن الإنسان يتذكر من الحوادث كل ما له صلة قوية بعاطفة ذلك الشخص، ويتناسى كل حادثة بعيدة عن نفسه وشخصيته. ونحن إذا نظرنا نظرة شخصية نجد أن كل حادثة تقع للإنسان يكون له ارتباط نفسي بها، فلا معنى لا يتناسى أى حادثة تطبيقا للنظرية العلمية السابقة. هذا ما يتبادر إلى الذهن في أول وهلة على أن العلم النفسي يدحض هذا الاعتراض بقوله أن تكون الصلة بين الحادثة والنفس ليست صلة مادية أو عقلية بل صلة مرتبطة بالعاطفة التي تؤثر على نفسية الإنسان. والبحث في هذه العاطفة ومدى انفعالها بالنفس البشرية يتوقف إلى حد كبير على شخصية المرء وجرأته وتعاركه في الحياة وانقلابه مع أطوارها حيث أن ليس للعاطفة مقياس محدود تؤثر به على مختلف الأفراد، بل لكل فرد مقاييس في الحياة يجب درسها على حدة والتعمق فيها بصورة باطنية، وأى إنسان يستطيع هذه المحاولة في غير نفسه.

إذن، فالإنسان لا يتذكر ولا يرسخ في عقله الباطن إلا ما أثر تأثيرا قويا على نفسيته أو

على عاطفته بالأحرى؛ فليستعرض كل إنسان حوادث صباه أو الحوادث القريبة من يومه ثم يرى أى الحوادث أرسخ في ذهنه، إنه لا يجد إلا الحوادث التي تأثر منها والتي صرف وجهه عنها، أما غير هذا من الحوادث، ولو كانت ذات صلة قوية بحياته من ناحية غير عاطفية فهو سرعان ما يغفل عنها بعد اليوم أو اليومين.

وقد يطول لنا المقام لو أحببنا أن نتحدث عن المسائل العاطفية كيف تنبت وكيف تنمو في نفس الإنسان، فذلك مما يجده الإنسان في المقالات أو الكتب الاختصاصية بذلك مع شىء من التطويل والشرح وضرب الأمثلة، أما وسطور هذه ليست إلا تمهيدا وجيزا لكلمة أود تخطيطها، فلأكتف بما قدمته.

- 2 -

في ساعة خلوت فيها بنفسي وتناسيت ما يحيط بي وما يثقل كاهلي في هذه الحياة جرى طيف الماضي السعيد أمام عيني وتذكرت الطفولة وحوادثها المريعة تارة والمثيرة طورا فاستسلمت لتلك الذكريات واستعرضتها بشىء من المرارة لست أدري باعثها الحقيقي إلا أني تصورت ذلك العهد حينما يكون الفكر فيه منصرفا إلى ناحية من الحياة بلذة وشوق كبيرين لا يجدهما المرء وقد ثقف عقله وظهرت له الحياة بمختلف صورها وانفعالاتها.

ولقد استعرضت ذكريات طفولتي هذه وأحصيتها فإذا لم يبق عالقا بالفكر نتفة صغيرة لها صلة بعاطفتي وما تأثرت به عند وقوع تلك الحادثة، وسوف أسرد بعض القصص ليدرك المرء بواعث النفس وكيف تتحرك وكيف تتأثر وما ذا أشعر به عندما أتذكر الحادث، وهكذا طبقت تلك النظرية العلمية على نفسي فوجدتها منطبقة تمام الانطباق، وقد يكون هناك أفراد كثيرون لم يوفقوا في هذا التطبيق، أو كانت نتيجة تطبيقهم مخالفة للنظرية السابقة فأمرهم لا يعنيني كما يعني أنفسهم وأحوالهم.

لك الله يا عهد الطفولة ما أودعك طيفا وما أصفى خيالك وأطهر محبتك وأنقى سريرتك عهدا

يكون قلب المرء فيه كطير ينتقل في الأحراث والغابات ويسمو إلى عنان السماء خفة وطهارة ويحادث الملائكة ببراءة وحنو.

الطفولة تحاكي الطبيعة العاديةالطاهرة وتصوغ من الجمال والوداعة صورا يفتش بها كل ذي إحساس بشري فنرى في تقبيلها وملاعبتها ما يطهر النفس ويفتح أمامها أبوابا للخير والسعادة ونشعر بحرارة قلبية متزايدة يضمها إلى صدورنا واندماجها مع أرواحنا، فهى نبراس للمحبة الصادقة ونور سماوي يتجلى على البشر من خلال ابتسامة عذبة لفم طفل ينظر إليك بعين صافية وقلب ملتهب بحرارة وشوق لا حد لهما ولا نهاية لعمقهما من نفسه.

فلا غرو إذا انقبض صدر الإنسان عندما يفكر ويستعرض صورا من طفولته وما تموجت به من تجاذب وتنافر وما اضطربت به من عواطف شريفة وإحساسات نزيهة، وما فاضت به من شعور ووجدان، فإن عهد الطفولة مقدس حيث لا تشمله إلا الطهارة والمحبة، ومحبوب لأنه عنوان إيماننا في هذه الحياة الملوءة بالجهاد وصفحة من أيام خلت من السعادة والانشراح.

لقد أخذت أستعرض هذه الصور من طفولتي وقتا ليس بالقصير وأجهد في انحصار فكري مدة طويلة من الزمان كنت في أثنائها ذاهلا عما حولي منكبا على التفكير والإمعان كأني أحاول تعليل ما أحيط بكل حادثة من غوامض لم أدرك كنهها إذاك وليس ذاك بالأمر السهل، فإن الصور التي ما زالت مرتسمة في ذهني عبارة عن خيال تقادم عهده وأسدل عليه ستار النسيان وانقلاب الحوادث؛ فإن المرء سرعان ما يتناسى أمر غده حيث أن الحوادث تتوالى بصورة غير منقطعة والفكر ليس بمحصور في ناحية واحدة من مناحي الحياة الواسعة، بل هو مشتت الشمل يود لو يلم بكل الأسباب والنتائج من دون أن يفحص بدقة شيئا واحدا.

وعليه فمعذرة إن لم تكن صور طفولتي هذه واضحة كما يجب عليها من أشعة التحليل ما

يكفي، فليس ذاك في مستطاع فرد كثير النسيان مثلي.

- 3 -

إذا تراجعت إلى الماضي البعيد من طفولتي باحثا عن أقدم صورة ما زالت مجسمة تجسيما تاما أو ناقصا في ذهني وأطلت التفكير وأمعنت في الفحص تراءت لي صورة بعيدة لعل عمري كان يومها في الخامسة أو السادسة على الأكثر: أرى نفسي محمولا على كتف أخي محمد وهو سائر بي إلى المكتب المجاور لبيتنا، ونفسي مرتعشة خائفة قانطة بالحياة؛ فإذا ما دخل بي المكتب وجدت طلبته في مكان ضيق مزدحمين، وقدمني إلى الأستاذ فأجلسني على ركبته وقبلني، فشعرت بخشونة شعره، ثم قال لي: ما اسمك؟ فلم أجبه، بل؛ كدت أنفجر بالبكاء ونفسي مضطربة، ولكن لا أتذكر ما جرى لي مع التلاميذ، بل غاية ما بقى راسخا في ذهني أني بعد أن رجعت إلى البيت أخبر أخي الأهل بذهابي للمكتب، فقبلتني الخدم وأظهرت أمي سرورها.

ذهبت إلى المكتب ونفسي قانطة نفورة خائفة وهى تتمنى لو انشقت الأرض وغمرتني فلا أذهب إليه مرة ثانية والعادة المتبعة في بلادي إذاك أن يذهب الطفل إلى المكتب ابتداء من سن الرابعة أو من الثالثة أيضا، وإذا كنت تأخرت إلى سن الخامسة أو السادسة فما ذلك إلا نظرا لمحبة عمتي لي وحرصها الشديد على راحتي وأنا لا أعرف نفسي إلا بين أحضانها وفي بيتها وتحت رعايتها، فقد اتخذتني ابنا لها وأنزلتني منزلة تفوق البنوة، فهى لم تلد قط وأنا إذن مدين لها بتربيتي وما كنت أشعر به من سعادة في طفولتي، ولقد كانت تمانع بكل شدة في ذهابي إلى المكتب، وطالما أخفتني عن عيون إخواني لدى ذهابهم إلى المكتب.

وتمر الأيام بعد ذلك اليوم من دون أن أتذكر عنها شيئا إلى أن أتذكر نفسي في يوم آخر أمام تلميذ اسمه محمد ملاح وهو يلقنني سورة « التين والزيتون وطور سينين » ولعل بين

اليوم الأول وهذا اليوم عدة شهور لا شك أني تعلمت خلالها حروف الهجاء وبعض سور أولية غير هذه السورة لست أدري هل كنت أذهب في تلك الفترة بصورة منظمة متتابعة أم حسب الصدف ومسامحة عمتي بفراقي.

كان هذا التلميذ يحفظني تلك الآيات من القرآن الكريم ودموعي نازلة على اللوح والشهقات من البكاء تتوالى فتقطع جل قراءتي المتعثرة، وبعد تكرار تلك الآيات بضعة مرات يحاول التلميذ أن أستظهرها أمامه فيستعصى على ذلك وأستسلم للبكاء المر، لكنه كان لطيف المعشر يمسح دموعي ثم يكررها معي، لكن هيهات! فلقد كانت الغباوة ظاهرة على عيني، وخصوصا من جانب الاستظهار، ولم تكن لي جرأة كافية على اقتحام أي صعب، وكنت أشعر من نفسي ضعفا لا يتصور، فأنا لحد الآن لا أدري كيف تقدمت إلى هذه السورة في التنزيل وقبلها سور شتى هل حفظتها واستطعت استظهارها أم كان ذلك بصورة تلفيقية من الأستاذ لا غير لكى أصل إلى سورة « يسبح لله » فتقام لي الحفلة التي تسمى عادة « الحدقة » والتي يأخذ الأستاذ فيها نصيبا وافرا من الدراهم.

لم أكن في المكتب كباقي التلاميذ من حيث الخفة والنشاط ولم تكن دلائل الحياة تظهر على ولا لي حيل الأطفال بأماكن الطلبة أو آخذ لهم أمتعتهم، فإن ذلك لم يكن ليخطر لي ببالي قط بل لقد كنت خاملا لا أجلب خيرا ولا سعادة لأي تلميذ، فلهذا كان الأستاذ لا يؤدبني بعصاه إلا قليلا، وما ذلك في الحقيقة إلا للضعف الذي كان يخامرني ولا أجد منه مفرا حيث أن البيئة التي عشت فيها كانت تشملني بعطفها وحنوها، وعلى الأخص من جهة عمتي أكثر مما يجب وينبغي أن يكون.

في العوائد المغربية أمور تدل دلالة واضحة على رقي في العقلية وحب للعلم وشغف به من جملتها ما يتعلق بالأطوار التي يمر عليها الطالب من أول تدريبه إلى أن يتهى بـ « الحدقة » التي تعبر عن اهتمام المغاربة بالعلم وتشجيعهم وكذلك « نزهة الطلبة » في فاس ومما لا يحصى عده فـ « المحدوق » يشعر بقوة مكينة من نفسه تحضه على

مواصلة عمله وتستحثه على السير وراء خطته.

عندما يفوز الشخص ماذا يشعر به؟ كثيرا ما تساءلت هذا السؤال ظنا مني أنه لم أفز في حياتي قط فوزا يضمن لي أن أجيب عن مثل هذا السؤال، لكن عندما استسلمت لذكريات طفولتي هذه وجدت نفسي قد فزت مرة في حياتي في عهد الطفولة عندما « حدقت » ذلك بأن وصلت لحزب « الرحمن » من الفرقان، فلقد أقامت لي عائلتي حفلة خصوصية شعرت أثناءها بزهو كبير وخامرني ما يخامر كل طفل، وها قد مرت ما ينيف عن عشر سنوات ما زلت متحققا أن هذه الحفلة كانت أول مشجع لي في حياتي بعدما كنت فاقدا لكل أمل شاعرا بضعف متناه وأفضل الموت على الحياة.

ذكريات

جلست كئيبا شارد الذهن غارق النظرات أحاول أن أشغل نفسي ولكن أجدها نافرة قلقة من كل شيء وأتطلع إلى ما حولي وأستعرض حوادث يومي لعلي أعثر على باعث فلا أجد هناك شيئا يذكر فأستلقي على الفراش تارة وطورا أفتح كتابا ثم أتناول القلم ولكن كل ذلك أثقل على نفسي من حمل الجبال الراسية.

ما أجدر الإنسان بأن يمر في مثل هذه الساعات فاقد الروح، تلك فترات لا أدري كيف أصفها ولا كيف أعبر عنها، بل حسبي أن أعتبر نفسي غير حية وأنها تستريح في غير هذا العالم، فإن القنوط من الحياة عبارة عن موت الحياة بصورة إن لم تكن قطعية فهى مجازية وأحسن دواء أستعمله في تلك الأوقات أن أقوم من فوري وأنطلق في المسير إلى أن أشعر بالتعب الجسمي وأستلقي مرة أخرى على الفراش فأستريح وأنا أفكر في باعث يزيل عني هذا القنوط، وهذا ما جرى لي اليوم، فلقد كنت في قنوط كبير لم ينقذني منه إلا السير، ثم امتددت على الفراش وأنا أستعرض ذكريات الماضي القريب حيثما كنت في بلادي

للمرة الأخيرة.

تذكرت بلادي وأهلي وأصدقائي، بل استسلمت لهذه الذكريات مدة تزيد عن الساعتين فتخيل لي كل المواقف وكل المشاهد التي ما زالت عالقة بذهني، والحقيقة أن غمي انفرج عني بهذا الاستسلام ولتلك الذكريات؛ فإن العقل مهما مد الفكر بمقوماته المعنوية ومهما غذاه بمعلومات علمية، فإنه لا يكاد يتذكر حتى يثور ثورة تنفجر لها النفس البشرية، فينسج الإحساس على هذه الثورة صورة تكون فتانة أو لا تكون ولكنها من صميم القلب، فإن هذه الأجيال البشرية لم تتحكم فيها إلا هذه الثورات العاطفية التي نراها في هجمات المتوحشين أو في اندفاعات المتدينين، وقد يخيل للمرء وقد امتلك ساعة زمام الأمر وتصرف فيه أنه انتهى بتاتا من مشاكل عاطفية وأنه أصبح أعلى من أن يصد عنه كل هواجسها وأن يكبح كل تياراتها، فما يشعر إلا وقد استولى عليه القنوط وصرفه عن أعماله، وأن تفكيره قد كل، ونفسه في احتياج شديد إلى ما يضمد فرحاتها التي لا يدري لها سببا.

إذن فمن واجب الإنسان أن يكون حكيما في كبح عاطفته وسيطرة العقل عليها، فيتخذ لذلك مقياسا معقولا وحدودا وسطية خوفا من الاصطدام غير المحمود.

تذكرت نفسي بين أهلي وعشيرتي وما يحيط بي وأنا بينهم من عطف وحنو وما كنت أشعر به نحوهم مما أدهشني الآن وحقق لدى أني كنت مغرورا أو كنت جاهلا بعلاقة النفس البشرية وهى في دور الطفولة مع ذويها ومن يكشفها، فقد كنت قاسيا في معاملتي خشنا في محاولاتي متصنعا في عطفي وإنسانيتي، لقد أدهشني كثيرا ما كنت عليه في معاملتي مع أمي وعمتي وخدم البيت، فكان العقل قد أسدل على نفسي حجابا ولم ير في الحياة إلا في صورتها المادية الجافة، وانتزع مني عاطفة هى ينبوع الخير البشري.

هذه أمي تنظر إلى بعينين ملؤهما عاطفة الأمومة ورقة الإحساس المتناهي تحاول أن تضمني إلى صدرها، وتشفي غليلها بتقبيلي، بل هى تحاول إدماجي في قلبها لأنه ذرة منها،

فإنسانيتها تريها أني جزء منها مهما كبرت ومهما ترجلت لم يكن مصدره إلا قطرة من دمها، وقطعة من لحمها، بل إن عطفها على ليس إلا عطفها على نفسها لأن نفسي مستمدة من روحها، وحياتي مدينة لها في سائر الحياة، إنه ملك لي لا يشاركني فيه أحد، تنظر إلى أمي وترى فى صورة عن نفسها فتجذبني بقوة إليها، لكني أتنطع منها بشبه خشونة، ولا أرضى منها هذا العطف الأمومي السامي الذي يقل من شأني بصورة بلهاء من عطف الجاهلات - استغفر الله - يزدري بقيمتي، وأنا الشاب العصري المثقف! ولا أعرف ما ذا تشعر به من الانكسار القلبي الفظيع إثر هذه الصدمة الشديدة من طفلها العزيز عليها سوى أن أرى - من دون أن أشعر طبعا - وجهها يتجهم، ونظراتها تتحول عني بذبول ولكنه في لطف الأم الحنونة وكأنها تحدثني بلسان قلبها الكليم فتقول « ما أقساك يا ابني العزيز » .

تذكرت هذا المشهد وخارت قوتي الأدبية وتأثرت نفسي من سوء تصرفي السابق ومعاملاتي المزرية الماضية، وصممت أن أكون برورا على من يعطف على، بل على من في قلبه ذرة من الشفقة الإنسانية والعطف البشري والإحساس النفسي بين جنبي، وأن أحاول أن أعترف لها بخطئي السابق وأقوم بكل واجباتي نحوها في غاية الإذلال والخضوع؛ وها هذي عمتي التي لا أشعر بنفسي إلا بين أحضانها، والتي كانت خير مربية بارة عطوفة، بل التي كانت أمثولة الشفقة والعطف، تلك العمة التي سهرت الليالي على راحتي ونومي الهادئ، فكانت تارة تغسل لي رجلي وأنا طريح الفراش سابح في عالم النوم، وطورا تنزع غطاءها في الليلة الباردة تزيده على لكى أدفأ وأكون مرتاحا، والتي طالما ضمتني إلى صدرها بكهربة الأم العطوفة وطالما حرمت نفسها من ملاذ في سبيلي، فإذا أتى البيت شيء عزيز كان نصيبي فيه أوفر من الجميع لأني - كما كانت تقول - أصغر من في البيت.

هكذا كانت عمتي - أو أمي - فهل تراني كنت أقوم بما توجبه على هذه الرعاية وهذه

المعاملة الفذة منها؟ لقد مرض زوجها ثم مات وهى تقول عزاء واحد، هم أبناء أخي الذين ربيتهم والذين لم أعتبرهم إلا أبنائي بكل ما في معنى البنوة من معاني ومدلولات. لك الله أيتها العمة الفريدة ما أحن قلبك وما أرق مشاعرك وما أرعى عواطفك، سوف أحاول أن أكون لك ابنا مخلصا أسعى في راحتك وأخدمك بكل ما أستطيع مما لا أعتقده سوف يفي لجزء صغير مما قمت به نحوي.

لقد أصبحت بعد هذه الغيبة الطويلة كلما خلوت إلى نفسي أتذكر أقوالك ونصائحك فخجلت مما كان يصدر مني في بعض الأحيان من الهفوات، وثقي أني لم أنس أياديك البيضاء على وعطفك الجميل نحوي، وإني بدأت اليوم أشعر بعطف قوي نحوك مما لا أعهده من قبل، وإن هذا العطف يحفزني إلى ضم طيفك إلى صدري ضم الشوق والندم وضم العطف والإقرار بالواجب، ضم الطهارة والأمومة الحانية.

لتصفحي عني فلقد كنت صغير العقل ظننت أن ما كنت تشعرين به ليس إلا عبارة عن تكاليف النساء الباردة، بل لم أكن أدرك أن عطفك مصدره الرحمة البشرية في أجلى مظاهرها وصورها. ولكن هل نحن الأبناء مدركون هذه الحقيقة آملون أن تصفح أمهاتنا عن خطيئاتنا؟

وهؤلاء الخدم لست أدري بما أصف شعورهم وعطفهم نحوي ونحو سائر إخواني الذين نشأت بينهم، فهو شعور أخوى بريء وعطف يدل على طهارة القلب، لم أكن خشنا في معاملتهم أو متآمرا فيهم، بل على العكس كنت أحترمهم وأرثي لحالهم، خصوصا عندما يقصون حوادثهم المفعمة بالمصائب وكيف خطفوا من أهلهم بعبارات كثيرا ما أتألم لها؛ فهذه تقص عليك أنها خرجت مع أمها وذويها للنزهة في بستان، وبينما هى منفردة إذ رأت شخصا يقدم لها من الحلوى فاستسلمت له إلى أن وجدت نفسها على جمل يقطع بها الفيافي والقفار، وكلما بكت واسترحمت أهلها كان السوط على رأسها بأفظع صورة، ويتخلل هذه الحكايات زفرات ودموع حيث تتخيل أهلها في صورة غامضة لكنها مؤثرة

ويزداد حزنها أو بأسها إذا تذكرت أنها في يوم ما سترحم من هذه الصورة بالنسيان.
يأتي هؤلاء الخدم صغيرات وينشأن مع العائلة التي إذا أحسنت معاملتهن كسبت عطفهن وحنوهن وحرمتهن المخلصة؛ أما إذا كانت على غير وفاق معهن فهناك خدمة مرغمة وقلوب جريحة وعيون مدمعة إلى أن تضم الأرض إحداهن.
وصلني أثناء غربتي هذه أن رئيسة الخدم في دار والدي قد أغمضت جفنيها للمرة الأخيرة، فبكى قلبي عليها بكاء مرا وشعرت بوحشة، ولم تستطع نفسي أن تصدق هذا الخبر الذي أنقله إليكم عن وفاة أم أحببناها سواء لمعاملتها لنا أو لحسن درايتها في الأعمال المنزلية، فكنت أرجع بين اليوم والآخر إلى الرسالة التي تحمل بين حروفها وفاتها، وأتطلع إليها لعلي أجد نفسي مخطئ فيما تصورت، ولكن قضى الله الأمر فلا مرد لقضائه.
لقد حزنت لوفائها حزنا أليما ولست أدري كيف سأجد دارنا بعد فراغها من تلك التي كانت تعمل في وقار وتحادث بتعقل وتستمع في إنصات، بل لقد كانت طبيبة العائلة تسرع إلى كل من يشعر بألم ما، وهى إن لم تكن درست شيئا من الطب فلها ولوع غريب به، فتلبي نداء من دعاها إلى سائر التجارب ومختلف أدوية الأعشاب. رحمها الله وكان في عون سائر الخدم.
... آه والأصدقاء الذين يحتلون نصف ذكرياتي وتأملاتي، وكثيرا ما تذكرت وحنت نفسي إليهم بل كثيرا ما بكيت فقد مر ما يقرب من سنتين على، انقطعت بيني وبين جلهم كل صلة من حيث لا أدري ولا أعرف لذلك سببا ظاهرا، وها انا أعقد أملي بكل ما في نفسي من قوة وما أشعر به من إحساس في الاجتماع القريب مع أصدقائي وتجديد الصلة القلبية بيننا لكن لا بد من الصبر وانتظار ما تفعله الأقدار، فلولا أني شديد الصرامة على نفسي وقوى العزيمة في كبح ما أشعر به لكنت مذهولا بائسا من شدة الاشتياق والرغبة الزائدة في المأرب النفساني الخطر. فها هو فؤادي يتقطع والدموع تهطل من عيني كلماخلوت إلى نفسي وارتسم على ذهني حياتي الماضية حيث كنت أشعر بغبطة

وقوة لا أدري أينهما الآن.

للإنسان صورة متحركة ناصعة الظهور عندما يجلس منفردا ويستعرض فكرة أيامه الغابرة، تلك الأيام التي علقت بذهنه وارتسمت صورتها على مهجة فؤاده، فأنا الآن أشعر بضعف وخوف كبيرين وتستولي على كآبة من الحزن والحيرة، فتصعد الزفرات ثم تتلوها الدموع على الورق وتحول بيني وبين القلم.

ما كنت أظن وأنا في بعادي أن نفسي ستشعر بكل هذا الألم بل، أستغفر الله، لم أكن أتصور هذا الألم وهذه الهموم التي أصبحت تتراكم على وتحول بيني وبين العمل، فلقد كان قلبي متحجرا من ناحية كهذه صلبا على مقاومة تيار العواطف التي تتراءى له، ولكن هيهات بمن قضى الدهر عليه بالفراق، أصبحت أشعر بجرح يزداد خطورة وألما كل يوم عن آخر ويتكاثف بشكل لا أعهده في غير الساعة التي أخذت الباخرة تجري في مياه البحر المتوسط وبدأت أرى من أرض الوطن ضبابا لم ألتفت إليه، وها أنا كلما أغمضت جفني تراءت لي ضبابا في وسطه منارة مخفية لا يظهر إلا رأسها: ذلك آخر مشهد من مشاهد وطني ... وطني العزيز.

أتذكر الآن هذه الحفلة. فإذا ما أقيمت هذه الحفلة بدأت أخرج من هاوية هذا اليأس المشين وندب عروق الآمال في روحي ، ولقد كانت الحفلة جامعة لكل أسباب التنشيط والتشجيع، فما زلت أتذكر أن الخدم أحاطوا بي في صباح « الحذقة » مظهرين احترامهم لي ومحبتهم لي، فغيروا لي ثيابي حيث لبست ثوبا حريريا و (جلابا) أبيض ثم أرسلوا أطباق « السفنج » إلى المكتب، وبعد ذلك ذهبت إليه بحاشية من الخدم والإخوان محاطا بكل مظاهر التبجيل والاحترام، فتقدمت للسلام على الأستاذ فأظهر مزيد سروره بي، وناولته كمية من الدراهم أعطاني إياها أبي؛ وبعد ذلك جلست بين الطلبة الذين تزينوا بأحسن ما عندهم خصيصا لحفلتي، فمدت الموائد وتناول سائر الطلبة الفطور بالسفنج،

وأرسلت كمية منه إلى دار الأستاذ، وعند الانتهاء قرأنا الفاتحة وبعض آيات مباركات، وعطل الأستاذ الدراسة طول ذلك اليوم احتفالا بحذقتي، ورجعت إلى البيت وأنا شامخ الرأس قوى العزيمة فاقتبلني الأهل وقبلتني أمي وعمتي وسائر الإماء، وأحاط بي إخواني وأبناء عمي والجيران، وقضيت طول ذلك اليوم نلعب ونمرح والكل تحت رئاستي وأنا المتأمر في الجميع حتى أن إخواني طلبوا من رئيسة الخدم شيئا فلم تود تلبية طلبهم، فلما طلبتها في ذلك أسرعت بتلبية طلبي وذلك إظهارا لتفوقي وإعجابا بي.

وهكذا مر يوم « حذقتي » وأشعر أني ولدت فيه من جديد حيث كان البؤس مخيما على نفسي وأنا دائما خامل الذكر من كثرة الاعتناء وعدم تحمل أي مسؤولية، ويحق لي إذن أن أفتخر ببعض العوائد عند المغاربة إذ تدل على تعلق كبير بالعلم والرغبة في تشجيع ذويه وأيضا تدل على اهتمام بتربية النفس وتشجيعها بالطرق الأدبية لا بالزجر والأمر دون غيرهما كما نتوهم ونعتقد نحن الشباب الذين ننتقد كل ما له صلة بالحياة القديمة.

لا أتذكر غير هذه الصور الثلاث عن طفولتي الأولى يوم كنت أدرس في المكتب المجاور لبيتنا. إن لها أثرا قويا على نفسي؛ ففي الأولى كانت أول صدمة لي أخرجتني من عالم العائلة إلى عالم آخر؛ وفي الثانية تدل على ضعفي النفساني؛ والثالثة تدل على تطور نفسي وغرس الثقة بها.

لم تطل مدة دراستنا في هذا المكتب؛ فلقد ظهر لوالدنا أن يأتي بأستاذ يدرسنا في البيت على حدة، ولست أدري الأسباب التي أبدت هذه الفكرة لا بد وإنما جاء بها لئلا نختلط بالتلاميذ ولنتربى تربية راقية ...

إذن، صار الأستاذ يدرسنا في إحدى غرف البيت، وأشهد أن هذا الأستاذ البدوي كان رقيق الطبع؛ فرغما من أن أبي كان يأمره باتخاذ الشدة معنا والصرامة في الدراسة فقد كان متساهلا. وما زلت أتذكر عن هذا الدور من الطفولة جملة حوادث يضيق المقام بسردها الآن ولكني أكتفي بحادثة أثرت في نفسي تأثيرا كثيرا ، ولا ريب أنها لحد اليوم تؤثر في

نفسي تأثيرا غير مباشر، فلقد كنت في طفولتي كثيرا ما استسلم للتفكير وللاحظة ما أشاهد ، فلماذا هذا السقف مرفوع وهذه السارية، ولماذا يوجد بعض الشقوق في الحيط وما أشبه ذلك، وكان يظهر لي أثناء ذلك التفكير عدة ملاحظات قد تكون سخيفة ولكنها تدل على دقة ملاحظة. وفي صباح يوم باكر ذهبت للدراسة في غرفة البيت، وبعدما قبلت يد الأستاذ جلست في محلي مع إخواني وحملت لوحي، وبعد هنيهة نام الأستاذ، فاغتنمت تلك الفرصة وحملت عدة « ديسات » ووضعتها على اللوح وصرت أفكر وأقارن كل واحدة مع الأخرى، ثم جعلت جانبا من كل واحدة على ذنب الأخرى ثم اكتملت حلقة وهناك بدأت أفكر أني لو ضربت على واحدة سوف يهتز الجميع، وخيل لي أنني أستطيع أن أكشف من هذا الاهتزاز حركة خفية مجهولة، فشعرت بخفة في نفسي ونشاط في روحي لم أعهدهما من قبل وأكببت أدقق تلك الديسات والارتباط بينهما بشيء كبير من الاهتمام والرغبة القلبية، واستيقظ الأستاذ من نومه وانتبه إلى انشغالي وتمحيصي فتطلع إلي وتطلع كذلك إلى سائر الإخوان إلى ما أقوم به وأنا عنهم غافل منهمك في أعمالي، ثم إني بدأت أنطق بما أتصور سيحدث من اهتزاز هذه الديسات فأقول عندما تتصل هذه الواحدة بهذه وهكذا وأحرك الأخير بيدي يحصل فرقعة كبرى وأمثلها بلساني، وهناك يحمل الأستاذ العصا ويضربني وأحس باصطدام هائل في نفسي وترتعش فرائصي ولا أدري ماذا حل بي اعتقادا منه أنه لو فسح لي في العمل دقيقة واحدة لاخترعت شيئا مهما.

هذه حادثة وقعت لي فيها أول صدمة مع تفكيري الحر ونظام الدراسة أسجلها وأترك التعليق عنها لفطنة القارئ اللبيب.

وفي مقدمة الجزء الثاني من الكتاب المذكور، أدلى الأستاذ أبو بكر القادري بارتسامات أخرى رسمها السعيد في ذكرياته كما يلي:

« هى ذكريات غامضة، تكتنفها سحب من النسيان تارة، وتجليها صور من الانفعال طورا، بل إنها لشديدة الأثر على نفسي، بعيدة المدى في أغوار عاطفتي، فكلما خلوت إلى نفسي لتناقشني وأناقشها الحساب، تراءت لي أشباح تلك الذكريات، وكانت زفرات تتصاعد من أعماق نفسي الملتهبة بنور الحياة، ووهيج من الماضي السحيق الذي يطوي عمري في لحظة، ويتناسى ما مر بي من حوادث، ليستقر على عهد طفولتي، ويداعبني في مرارة، فإذا ما استجمعت قواى من هذه الجولة القصيرة العميقة في حياتي، ارتسمت على شفتاى ابتسامة تكون خاتمة هذا الانفعال ولو إلى حين.

... ولعلي الآن وأنا أحاول أن أسجل بعضها لا بصورة حقيقية رائعة كما هى في مشاهد مخيلتي، أرمي إلى فكرة تخليد هذه الذكريات بعد موتي إذ لا أعتقد أنها ستنسحب من ذاكتتي ولو في أعصف يوم سأبارز فيه لأفوز في ميدان الحياة، فلها ساعات ولمواصلة الجهاد الإنساني بقية الساعات.

... أتذكر عندما كنت أهجع في النوم بعد الغروب بقليل، لا تعبا من حرارة الأطفال التي تتولد من مقاومتهم الصبيانية الجميلة، وألعابهم التي هى مظهر من مظاهر حيويتهم ونشاطهم، بل استسلاما لكرى مصدره الخمول وابتعادا عن مصادمات وليدة النفعية التي تتجلى في الأطفال، وينبغي أن تتجلى فيهم. فإذا ما دنت التاسعة ليلا، كان ذوي انتهوا من العشاء، وبدأت سهرتهم، فيتجاوب الحديث، ويرن صداه إلى، فأشعر بيقظة، ولكني أتعمد النوم خشية من هؤلاء الأفراد الذين لم يكن بينهم إلا ذوي، ومن أراهم صباح مساء، فتدور مذاكراتهم وأحاديثهم إلى أن تستقر على وأنا منصت، وهم يرون على وجهي سبحات النوم التي أصطنعها بباعث الخوف والحياء، فأرجو أن أسمع منهم كلمة طيبة تنقذني من هذه الأوهام والوساوس، وأتمنى أن يكون حديثهم عني كحديثهم عن إخواني وأبناء الجيران، فأتساوى معهم، لأني أشعر بضعف تام عن مجاراتهم ولو في أتفه المسائل، فتراهم يتحدثون، فتختلف نظرياتهم في عدة مسائل، لكنهم لا يختلفون بأني

خامل، فاقد لروح النشاط، وأن مستقبلي في يد الأقدار، وحياتي في مهب الرياح، وأن ضعفي سبب شقائي وكآبتي، فأشعر بضيق، وأرى الحياة مظلمة، وأرغب في الموت والاستراحة من عناء المسؤولية في هذه الحياة ... والنساء أيضا، كيدهن عظيم على أنا الصغير الضائع في مهب الرياح، فالذي يشعر إلى درجة يتمنى معها أن تطويه الأرض بين طياتها، لن يقوى عن مجابهة النساء وبريق وجوههن، وخفة روحهن، وجاذبية حديثهن، فلقد كنت جبانا أمام كل الأفراد، فكيف تتصور موقفي أمام سيدة في وسط يرى الإنسان المرأة فيه نادرا، ويراها متحلية بجمالها اندر الندور، بل رابع المستحيلات، إلا الساعة التي يرى فيها زوجته، وكيف تتصور موقفي عندما تفاجئني سيدة، كلها جمال، وتقبلني في لطف ومداعبة، ثم تتحدث إلى قائلة: ما أجملك يا بنى! وما أشد احمرار خدودك! فتسائلني دون أن أدرى جوابا، وترشقني بعيونها، فأشعر بنبضات فؤادي تتزايد وتقوى وتشتد كلما طال حديثها إلى ...

وأنتقل إلى الحديث عن نفسيتي وإحساساتي عندما أرى أخي محمد. كنت ضعيفا في كل الميادين، لا أقوى على مواجهة أي أمر مهما كانت صبغته، وكنت أمثل في ضعفي هذا رجلا بائسا مستسلما للأقدار وتصرفاتها، لا أعاند كما ينبغي للأطفال أن يعاندوا، ولا أتشبث برأى، بل أدع ذلك إلى مجرى الحديث حيث غالبا ما أنتصر ظاهريا إلى رأي القوى. وأشهد الآن أنه لم يكن بين أفراد عائلتنا فرد يتساوى مع أخي محمد، في قوة النفس، وصرامة الفكرة، وسرعة التنفيذ، ولا أبطش فيهم بمن يخالف فكرته، فكان دكتاتوريا في جماعتنا الصغيرة، ومسيطرا في بيتنا في غير رهبة، بل في جرأة كنت أشعر باحترامها رغم نفوري منها. لكن طبيعي، وأنا لا أقوى على شيء، أن أكون مع أخي القوى، ضعيفا مستسلما لمشيئته وهواه، لا حبا فيه أو اعزازا له بل لأني أشعر في أعماق نفسي بجبروته، وأحس أن نبضاتي تتزايد بحضوره في المجلس ».